



تحليل أنماط النقوش الصخرية والكهفية لفهم الوعي البيئي والروحاني للإنسان البدائي

ثريا محمد راشد

جامعة صبراتة – كلية الفنون

*Analyzing Patterns in Rock Art and Cave Paintings to Understand the Environmental and Spiritual
Consciousness of Early Humans*

Thuraya Mohammed Rashed

Sabratha University – Faculty of Arts

thryarashd4@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/09/02 - تاريخ المراجعة: 2026/09/08 - تاريخ القبول: 2026/10/06 - تاريخ النشر: 2026/10/17

الملخص

لفهم الوعي البيئي والروحي لشعوب ما قبل التاريخ، يدرس هذا البحث أنماط نقوش الصخور والكهوف، ورغم أنها يتناولان الموضوع نفسه، إلا أن علم ما قبل التاريخ يُورخ للأدلة الملموسة باستخدام العلوم الطبيعية والفيزيائية، بينما يستخدم علم الآثار النصوص المكتوبة للتحقق من صحة الروايات التاريخية ومراجعتها، وتتجلى الجوانب الإبداعية والجمالية والفكرية للوجود البشري في عصور ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى روتينهم اليومي ومعتقداتهم الدينية ومشاريعهم الاجتماعية، بوضوح في منحوتات الصخور والكهوف، كما تُظهر هذه المنحوتات تطور المواهب الإبداعية والتكنولوجية للإنسان البدائي، وتُجسد الصلة الوثيقة بين الإنسان والطبيعة، وتكشف عن معاني بيئية وروحية متكررة، وتُظهر المنحوتات المراحل الأولى للتفكير الرمزي والتواصل الثقافي من خلال عكس مواقع طبيعية مهمة مثل المراعي ومصادر المياه، وتقديم لغة رمزية بصرية مشتركة بين مجتمعات ما قبل التاريخ.

عند جمع وتحليل منحوتات الصخور والكهوف، اعتمد البحث على منهجية وصفية تحليلية، مع إبراز أوجه التشابه والاختلاف الإقليمية من خلال المقارنة، ولفهم الأهمية الروحية والبيئية للنقوش، استُخدمت أساليب شملت الملاحظة المباشرة، والتصوير الرقمي، ونظم المعلومات الجغرافية، والتحليل الرمزي والمقارن، وتضمنت الدراسة مواد ثانوية من منشورات ودراسات علمية ذات صلة، بجانب مصادر أولية من رحلات ميدانية وتحليلات نقوش.

إن النقوش على الصخور والكهوف ليست مجرد أعمال فنية، بل هي سجلات بصرية حيوية تمثل العادات المجتمعية، والمعتقدات الدينية، والوعي البيئي، ويمكن فهم تطور تفكير الإنسان القديم وثقافته ووعيه الرمزي من خلال مقارنة النقوش من مواقع مختلفة، والتي تُظهر أوجه تشابه في الرموز مع اختلافات محلية تعكس التنوع البيئي والثقافي، ومن أجل الحصول على فهم أعمق للتفكير الروحي والوعي البيئي للإنسان ما قبل التاريخ، تقترح الدراسة توسيع نطاق البحث النظري حول هذه النقوش من منظور رمزي وأنثروبولوجي، وإجراء دراسات مقارنة لفهم أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات القديمة، والنظر إلى النقوش الصخرية كسجلات ثقافية وفكرية، وربطها بالمنظورات الحديثة حول التفاعل بين البشر والبيئة.

كلمات دالة : النقوش الصخرية، الفن الكهفي، الإنسان البدائي، الوعي البيئي، الوعي الروحاني، الرموز، الحضارات القديمة .

Abstract:

To understand the environmental and spiritual awareness of prehistoric peoples, this research examines patterns of rock and cave carvings. Although they address the same subject, prehistory documents tangible evidence using the natural and physical sciences, while archaeology uses written texts to verify and revise

historical accounts. The creative, aesthetic, and intellectual aspects of prehistoric human existence, as well as their daily routines, religious beliefs, and social projects, are clearly evident in rock and cave carvings. These carvings demonstrate the development of primitive man's creative and technological talents, embody the close connection between man and nature, and reveal recurring environmental and spiritual meanings. The carvings demonstrate the early stages of symbolic thinking and cultural communication by reflecting important natural sites such as pastures and water sources, and present a shared visual symbolic language among prehistoric societies. When collecting and analyzing the rock and cave carvings, the research relied on a descriptive-analytical methodology, highlighting regional similarities and differences through comparison. To understand the spiritual and environmental significance of the carvings, methods were used, including direct observation, digital photography, geographic information systems, and symbolic and comparative analysis. The study included secondary material from relevant publications and scientific studies, along with primary sources from field trips and carving analyses. Rock and cave carvings are not merely works of art; they are vital visual records representing societal customs, religious beliefs, and environmental awareness. The development of ancient human thought, culture, and symbolic awareness can be understood by comparing carvings from different sites, which exhibit similarities in symbols with local variations that reflect environmental and cultural diversity. To gain a deeper understanding of prehistoric human spiritual thinking and environmental awareness, the study proposes expanding the scope of theoretical research on these carvings from a symbolic and anthropological perspective. Comparative studies should be conducted to understand the similarities and differences between ancient cultures, viewing rock carvings as cultural and intellectual records.

Keywords: rock carvings, cave art, primitive man, environmental awareness, spiritual awareness, symbols, ancient civilizations.

المقدمة

بينما يدرس كلٌّ من علم ما قبل التاريخ وعلم الآثار نفس الموضوع الذي يُساعدنا على فهم جوانب عديدة من الوجود البشري منذ البداية، يختلف منهج البحث في علم ما قبل التاريخ عن منهج علم الآثار، يعتمد علم ما قبل التاريخ على العلوم الطبيعية، مثل جيولوجيا العصر الرباعي وعلم الحفريات، بجانب العلوم الفيزيائية، لتاريخ الأدلة المادية ضمن التسلسل الزمني لحضارات ما قبل التاريخ، بينما يعتمد علم الآثار بشكل رئيسي على النصوص المكتوبة لدعم التاريخ وتصحيحه بالأدلة المادية، ولأنها تُقدم لنا صورة حية عن الجوانب اليومية لحياة الناس وتقاليدهم وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية، تُعتبر الرسومات والنقوش من أهم مجالات الدراسة في عصر ما قبل التاريخ وفجره، تُعالج هذه اللوحات والنقوش الصخرية الجوانب الجمالية والأساليب الجماعية والصفات الفكرية للشعوب التي أنتجتها، وبغض النظر عن أسباب إبداعها، يُعدّ فن الصخور مصدرًا رائعًا للمعرفة وله أهمية تاريخية للعديد من الحضارات، كما أنه قبل عصور ما قبل التاريخ كان سكان الكهوف على دراية بالفن، لم يقتصر عمل سكان الكهوف طوال العصر الحجري على صنع الأدوات والأسلحة ورؤوس السكاكين من الحجر والعظام، بل قاموا أيضًا بنحت الجمال ووحيد القرن والماموث، وقد أدى ذلك إلى ظهور فكرة استخدام تقنيات مثل النقش والحفر لمحاكاة الظواهر الطبيعية.

من أكثر الطرق شيوعًا للتعبير الفني عن الإنسان ما قبل التاريخ هي النقوش على الصخور والكهوف، فهي مرآة تعكس معتقداته الروحية ومعرفته بالبيئة، وليست مجرد رسومات أو نقوش على الصخور، تنعكس حياتهم اليومية، ومشاريعهم الاجتماعية والاقتصادية، وعاداتهم الدينية والرمزية في هذه المنحوتات، ومن خلال تصويرهم للحيوانات والأحداث الطبيعية، تُبرز هذه المنحوتات أيضًا الترابط بين الإنسان والطبيعة، يمكننا التعرف على الأساليب والطرق الإبداعية التي استخدمها الإنسان ما قبل التاريخ، بجانب الرموز التي اختارها للتعبير عن أفكاره ومعتقداته، من خلال دراسة الأنماط الموجودة في هذه المنحوتات، وهذا يتيح للباحثين فرصة لفهم ثقافة وأساليب تفكير الإنسان ما

قبل التاريخ، بجانب ان هذه المنحوتات تقدم دليلاً هاماً على الوعي الروحي والبيئي للإنسان، بجانب علاقته بالبيئة والموارد الطبيعية، كما تُظهر كيف يمكن تطوير القدرات الفنية والإبداعية تدريجياً، نتيجةً لذلك تُعد دراسة الأنماط الموجودة في نقوش الصخور والكهوف أمراً أساسياً لفهم الفكر والثقافة والمعتقدات الرمزية للإنسان القديم، كما تُعد هذه النقوش مصدراً غنياً بالمعلومات لعلماء الآثار والأنثروبولوجيا الذين يدرسون الوعي البيئي والوعي الروحي لمجتمعات ما قبل التاريخ، إن كل ما نقشه الإنسان القديم على النقوش الصخرية ما هو إلا انعكاس لمحيطه وواقعه وأفكاره، تُعتبر النقوش الصخرية من أهم السجلات الأثرية التي اعتمد عليها العلماء في محاولاتهم لكتابة تاريخ الحضارة المغربية القديمة، ولإعادة تمثيل الظروف المناخية والحضارية المختلفة التي أدت إلى ظهور هذه النقوش الصخرية، يبدأ العلماء بتفسيرها بالاستناد إلى الحقائق التاريخية المتبقية¹.

تعتمد دراسة الفترات على الأدوات والمعدات والصور والرسوم التي خلفها الناس وراءهم، سواءً في مساكنهم أو قبورهم أو كهوفهم أو على حواف الصخور، فهي تُقدم دليلاً ملموساً على أساليب الحياة والمعتقدات والوعي الثقافي لشعوب ما قبل التاريخ، وتُعد نقوش الصخور والكهوف من أبرز أمثلة التعبير الإبداعي بين هذه العناصر، فمن خلال تصوير الحيوانات والمناظر الطبيعية والرموز الروحية التي تُمثل معتقداتهم ومثلهم العليا، تُظهر هذه النقوش كيفية تفاعل شعوب ما قبل التاريخ مع محيطهم، وتتيح لنا هذه النقوش تكوين صورة شاملة للثقافة الإنسانية القديمة، وتُعد الجيولوجيا وعلوم الفضاء والاستشعار عن بُعد والأنثروبولوجيا الطبية والاجتماعية، إلى جانب العديد من المجالات الأخرى والتطورات التقنية من هذه الفترة الزمنية، من بين العلوم العديدة التي تُساعدنا في فهم هذه الفترات، وتُمكن هذه التطورات العلماء من فك رموز النقوش والرسوم وربطها بالوعي الروحي والبيئي لشعوب ما قبل التاريخ². **مشكلة الدراسة**

من بين أقدم الآثار الملموسة لإنسان ما قبل التاريخ المنحوتات التي عُثر عليها على الصخور والكهوف، تُمثل هذه المنحوتات نافذة حيوية على حياته اليومية، وتفاعلاته مع العالم الطبيعي، وإدراكه للعالم الروحي والميتافيزيقي، ورغم أهميتها البالغة ركزت غالبية الأبحاث حول هذه المنحوتات على العناصر الشكلية والفنية والتقنية، مثل أسلوب الرسم وأدوات النقش، دون استكشاف الجوانب الرمزية والثقافية التي تكشف عن الوعي البشري المبكر بالبيئة والروحانية.

بدلاً من أن تكون هذه المنحوتات تمثيلاتٍ عابرة للحيوانات أو الأحداث الطبيعية، غالباً ما مثلت علاقةً متبادلةً معقدةً بين الإنسان والبيئة، مرتبطةً بالطقوس الروحية أو الدينية، بجانب الأنشطة اليومية كالصيد، تشير الرموز المجردة والمواضيع المتكررة إلى أن هذه الصور ارتبطت بعمليات تفكير رمزية أثرت في ظهور الوعي الروحي والديني البشري، لفهم الأفكار والآثار الكامنة وراء هذا الشكل الإبداعي، لا تزال هذه الخصائص بحاجة إلى دراسة تحليلية متعمقة، يتجلى السؤال الرئيسي للدراسة - كيف يُمكن لفحص أنماط نحت الصخور والكهوف الكشف عن خصائص الوعي البيئي والروحي لإنسان ما قبل التاريخ؟

اهداف الدراسة

- أ- دراسة الأشكال والرموز المحفورة على الصخور والكهوف، لكشف المعاني المرتبطة بمعرفة إنسان ما قبل التاريخ بمحيطه،
- ب- تحديد الفلسفات والأساليب الفنية المستخدمة في نحت الصخور والكهوف.
- ت- تصنيف مواضيع المنحوتات (الحيوانات، مشاهد من الحياة اليومية، والرموز الروحية) وربطها بالعادات والمعتقدات القديمة.
- ث- دراسة كيفية انعكاس تمثيل هذه المنحوتات للعناصر الطبيعية على التفاعل بين البشر والعالم الطبيعي.
- ج- دراسة المنحوتات لإيجاد أمثلة على كيفية استخدام إنسان ما قبل التاريخ للتفكير الروحي والرمزي.
- ح- دراسة منحوتات من مناطق مختلفة لإيجاد أوجه التشابه والاختلاف في الوعي الروحي والبيئي.
- خ- تحديد القيم الثقافية والاجتماعية التي ارتبطت بأنماط النحت في مجتمعات ما قبل التاريخ.

- د- التأكيد على أهمية المنحوتات الصخرية كسجل بصري لتطور الأفكار الروحية والبيئية عبر الزمن، هذا العمل مدى تشابه رموز الحضارات القديمة واللاحقة أو اختلافها.
- ذ- مقدماً منظوراً تحليلياً جديداً لمنحوتات الصخور والكهوف، مما يُعزز البحث الأثري والأنثروبولوجي.

تساؤلات الدراسة

1. إلى أي مدى يتجلى فهم الإنسان ما قبل التاريخ لبيئته الطبيعية في الأشكال والرموز التي نقشها على الصخور والكهوف؟
2. ما هي التقنيات الإبداعية والأيدولوجيات التي استخدمها الإنسان القديم لنحت الصخور والكهوف؟
3. إلى أي مدى تعكس مواضيع المنحوتات - الحيوانات، ومشاهد من الحياة اليومية، والرموز الروحية - تقاليد ومعتقدات شعوب ما قبل التاريخ؟
4. بأي طرق يمكن أن تساعد صور العناصر الطبيعية في هذه المنحوتات على فهم طبيعة العلاقة بين الإنسان والعالم الطبيعي؟
5. كيف تتجلى الأفكار الرمزية والروحية للإنسان القديم في هذه المنحوتات؟
6. ما هي أوجه التشابه والاختلاف في الوعي البيئي والروحي التي يمكن إيجادها عند دراسة المنحوتات من مناطق جغرافية مختلفة؟
7. كيف ارتبطت تقنيات النحت في الثقافات القديمة بقيمتها الثقافية والاجتماعية؟
8. إلى أي مدى تتشابه رموز المنحوتات الصخرية مع رموز الحضارات اللاحقة، أو تختلف عنها؟ وإلى أي مدى يُمكن اعتبارها سجلاً بصرياً لتطور المفاهيم الروحية والبيئية عبر الزمن؟
9. بأي طرق يُمكن أن يوفر الفحص الفكري والعلمي لهذه المنحوتات منظوراً جديداً يُعزز الدراسات الأنثروبولوجية والأثرية؟

أهمية الدراسة

تتجلى أهمية هذا البحث في سعيه إلى إعادة تفسير منحوتات الصخور والكهوف كسجلات ثقافية وأنثروبولوجية تكشف عن أنماط التفكير، بالإضافة إلى الوعي البيئي والروحي لدى القدماء، بدلاً من كونها مجرد قطع زخرفية أو فنية، ويتيح هذا البحث فهماً أعمق للعلاقة بين المعتقدات الروحية والرمزية لإنسان ما قبل التاريخ وبيئته المحيطة، ويساعد هذا البحث على سدّ فجوة معرفية لطالما سادت في الأبحاث السابقة، والتي ركزت غالباً على السمات الفنية والتقنية للمنحوتات.

وتتبع أهمية الدراسة أيضاً من المنظور التحليلي الجديد الذي تقدمه، والذي يُسهّم في فك رموز المواضيع والرموز الموضحة في هذه المنحوتات، ويُجسد جوهر الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في تلك العصور، كما يُؤكد على دور هذه المنحوتات كتوثيق بصري لتطور الفكر البشري من عصور ما قبل التاريخ إلى ظهور الحضارات اللاحقة، مما يسمح بمقارنة الرموز القديمة والحديثة وتوضيح أوجه التشابه والاختلاف بينها.

يؤكد البحث أيضاً على أهمية نقوش الصخور والكهوف كجزء من التاريخ البشري المشترك، لما تحمله من معاني روحية وبيئية لا تقتصر على قبيلة أو منطقة بعينها، بل تعكس ذاكرة إنسانية جماعية، ومن خلال تقديم منهجية قائمة على التحليل الرمزي والثقافي للنقوش، يُسهّم البحث أيضاً في تطوير مجال الدراسات الأثرية والأنثروبولوجية، مُوسّعاً معرفتنا بالبشر القدماء وتفاعلاتهم مع محيطهم ومعتقداتهم.

ومن خلال المساهمة في زيادة الوعي بقيمة تراث الصخور والكهوف، والدعوة إلى حمايته والحفاظ عليه كشاهد على المراحل الأولى للفكر البيئي والروحي البشري، تتجاوز أهمية هذه الدراسة النطاق الأكاديمي لتشمل المجالات الثقافية والحضارية أيضاً.

فرضيات الدراسة

- الفرضية الأولى:** ينعكس فهم إنسان ما قبل التاريخ لبيئته الطبيعية في المعاني الرمزية العميقة التي تكشفها منحوتات الصخور والكهوف.
- الفرضية الثانية:** للتعبير عن الحياة والأفكار الطقسية، استخدم إنسان ما قبل التاريخ أساليب إبداعية مقصودة، بدلاً من ارتجالية، في نحت الصخور والكهوف.
- الفرضية الثالثة:** ارتبطت ممارسات ومعتقدات ثقافات ما قبل التاريخ ارتباطاً وثيقاً بموضوعات المنحوتات، والتي شملت الحيوانات والمواقف اليومية والرموز الروحية.
- الفرضية الرابعة:** ينعكس تواصل الإنسان مع البيئة في السمات الطبيعية للمنحوتات، والتي تُعدّ أيضاً أداة لفهم كيفية تفاعل البشر مع العالم الطبيعي.
- الفرضية الخامسة:** تُمثل المنحوتات تعبيرات عن الفكر الروحي والرمزي المبكر، والذي شكّل أساساً للأنشطة الاحتفالية والدينية اللاحقة.
- الفرضية السادسة:** تُظهر المنحوتات في مواقع عديدة روابط وتباينات واضحة، مما يُظهر تنوع الوعي الروحي والبيئي في مختلف البيئات والحضارات.
- الفرضية السابعة:** في ثقافات ما قبل التاريخ، ارتبطت أنماط نحت الصخور بقيم ثقافية واجتماعية راسخة، وساهمت في بناء رؤية عالمية مشتركة.
- الفرضية الثامنة:** من خلال تسليط الضوء على أوجه التشابه أو التباين بين رموزها ورموز الحضارات اللاحقة، تُقدم نقوش الصخور والكهوف سجلاً بصرياً متكاملًا يُظهر تطور الوعي الروحي والبيئي البشري.

الدراسات السابقة

1. دراسة (سائحي العلاء، 2024م) بعنوان: دراسة مفاهيمية للنقوش الصخرية، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية جامعة زيان عاشور بالجلفة – الجزائر.
- تتناول هذه الدراسة فكرة النقوش الصخرية في منطقة أطلس الصحراء، وتاريخها، وتقنيات البحث فيها، وأهميتها، وعلاقتها بالحياة اليومية للإنسان ما قبل التاريخ. سنناقش فكرة فن الصخور والاكتشافات الأولية في المنطقة، كما سنناقش الأدوات التي استخدمها الناس في تلك الحقبة لإنتاج هذا النوع من الرسومات.
2. (Mirte Korpershoek, et.al, 2024) Entitle: Old and New Approaches in Rock Art: Using Animal Motifs to Identify Palaeohabitats, MDPI.
- من المعروف أن البشر رسموا ونقشوا زخارف هندسية غير واضحة، بالإضافة إلى زخارف تمثيلية تُلمح إلى أنشطتهم وعناصر محيطهم على أسطح الصخور. وقد تأثر هذا النوع من الفن بأساليب مختلفة عبر التاريخ، وهو موجود في كل زمان ومكان. ومن مجالات الدراسة الشائعة تفسير المواضيع التمثيلية وغير التمثيلية، بالإضافة إلى دور الفن الصخري في تطوير الدماغ البشري والقدرة على التفكير التجريدي. يُعد الفن الصخري نتاجاً لممارسات طقسية وتجسيدا لنظام معتقدات شامانية، كما أكدت الإثنوغرافيا والدراسات المعرفية مراراً. ومع ذلك، يمكن للزخارف التمثيلية أيضاً أن تكشف معلومات عن عصور ما قبل التاريخ الطبيعية والبشرية لموقع ما. نقدم هنا ملخصاً للتطور العام لدراسة الفن الصخري: قبل التطرق إلى المعتقدات التي انبثقت من أقدم دراسات الفن الصخري، نُسلط الضوء على تطور السلوك الفني لدى البشر من خلال الحديث عن التفضيلات الجمالية وتشكيل الزخارف الهندسية البسيطة التي أصبحت فيما بعد مواضيع رمزية. ركزت هذه الدراسات بشكل رئيسي على تصنيف وتفسير الزخارف، مع التركيز بشكل متكرر على القطع الأثرية الأوروبية من العصر الحجري القديم. ثم ننقل إلى الحديث عن كيفية كشف الإثنوغرافيا لدى القبائل التي تُدع فنوناً صخرية عن روابط مهمة بين

حيوانات معينة في سياق البيئات المحلية والنظم العقائدية الروحية. وأخيرًا، نشير إلى كيفية انعكاس تمثيلات الحيوانات والنباتات والتقنيات والبشر وأنشطتهم في فنون الصخور على البيئة المحلية المعاصرة. ونظرًا لأن تمثيلات الحيوانات هي الزخارف التمثيلية الأكثر شيوعًا والموضوع الأنسب للبحث عند استخلاص استنتاجات حول التغيرات البيئية، فإننا نؤكد أنها موضوع قيم للبحوث واسعة النطاق. فبالإضافة إلى طرح أسئلة جديدة وسد الثغرات في السجل الأثري المحلي، يمكن لفن الصخور أن يوفر رؤى جديدة حول تاريخ التفاعل بين الإنسان والحيوان في المنطقة. على سبيل المثال، من المرجح أن تكون أنواع الحيوانات المرسومة أو المذكورة في فنون الصخور مجموعة مختارة من الحيوانات ذات الأهمية الروحية، وقد تشير المقارنة مع البيانات المتوفرة حول التفاعلات البشرية مع الأنواع المحلية إلى أنماط اختيار الحيوانات لتصوير فنون الصخور المحلية، والتي لا يتم اختيارها. بدورها، يمكن للمقارنة بين المناطق أن تكشف ما إذا كان الناس يميلون عمومًا إلى إعطاء معنى لنفس أنواع الحيوانات. نختم هذه الورقة بتقديم توصيات لإجراء أبحاث إضافية، مع التركيز على التقنيات الحاسوبية المناسبة لتحليل قواعد بيانات الصور المرئية الضخمة.

3. (Watson, B, 2010) Entitled: Psychoanalysis and prehistoric art. Journal of Iberian Archaeology, 13, 35-49.

تناقش هذه الدراسة منظوري جونغويانا وفرويد حول فن الصخور الصخرية في عصور ما قبل التاريخ والقطع الفنية الأثرية. وأكدت على أهمية النظرية النفسية في دراستنا للفن القديم، وشرحت القضايا والتحديات التي تثيرها هذه الرؤى النفسية، وخاصة تلك التي تهدف إلى فهم المعنى الأصلي للفن. كما تتناول صحة وفائدة هذه الرؤى النفسية من خلال دراسة السلوك والإدراك البصري والإدراك البشري.

المبحث الأول: النقوش الصخرية والكهفية كمدخل لفهم الإنسان البدائي

من أقدم وأهم الطرق التي عبّر بها إنسان ما قبل التاريخ عن نفسه وعن بيئاته الطبيعية والاجتماعية النقوش على الصخور والكهوف، فهي بمثابة سجل بصري فريد يُظهر كيف نشأ فهم الإنسان لجوانب الوجود المتعددة. فمن خلال تصوير الحيوانات التي كان يصطادها، والنباتات التي يحتاجها لقوته، والظواهر الطبيعية التي ألهمت رهبته أو رعبه، لم يكن هذا الفن مجرد مسعى زخرفي أو فني؛ بل كان تمثيلًا مباشرًا لتفاعل الإنسان مع بيئته الخارجية، ونتيجة لذلك يتجاوز تحليل هذه النقوش قيمتها الجمالية ليشمل جوانب أعمق تتعلق بالوعي البيئي والروحي لإنسان ما قبل التاريخ.

ولأنها عكست إدراكهم للكون ومحاولتهم فهم القوى الطبيعية المحيطة بهم، كانت منحوتات بيترين أساسية في تسجيل تجارب الحياة المبكرة للبشرية، فبدلاً من العيش منفصلين عن الطبيعة، كان إنسان ما قبل التاريخ جزءاً منها، متأثراً بها، ومتأثراً بها، كما يتضح من خلال النقوش التي تركها على الصخور المكشوفة أو جدران الكهوف أنه أدرك قيمة الموارد الطبيعية التي شكلت أساس حياته اليومية، تُظهر هذه الرسومات أيضًا جهوده المبكرة لإضفاء معنى روحي ومجازي على حياته.

بجوهرها الرمزي والبصري، تتقل هذه النقوش لغةً عميقةً وصامتةً في آنٍ واحد، فهي تُظهر كيف امتلك إنسان ما قبل التاريخ وعيًا يتجاوز الغريزة والبقاء إلى عوالم أوسع مرتبطة بالقدس والروح والرموز، لذلك فإن دراسة رسومات الصخور والكهوف كنقطة انطلاق لفهم الإنسان البدائي تُتيح لنا فرصةً ثمينة لإعادة تفسير التاريخ البشري المبكر من منظور ثقافي وأثنوبولوجي، وهذا يوضح كيف تطورت الأفكار المبكرة وكيف ترسخت التفاعلات بين البشر والبيئة في التمثيلات الجمالية التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم.

من خلال دراسة الرموز والأساليب الإبداعية المستخدمة، يُمكن للأكاديميين أيضًا دراسة التطور البطيء للعقل البشري من خلال النقوش الموجودة على الصخور والكهوف، لكل منحوتة معانٍ تتجاوز محيطها المباشر لتظهر كيف حاول إنسان ما قبل التاريخ فهم الكون وتفسير القوى الطبيعية والأحداث الغامضة التي لم يستطع تفسيرها، تُعزز هذه النقوش فكرة أن الإنسان البدائي لم يكن مجرد كائن يحاول

البقاء على قيد الحياة، بل كان أيضًا كائنًا ثقافيًا وروحيًا قادرًا على التعبير عن معتقداته وتجاربه في شكل بصري متطور، وهي فكرة تُعززها هذه النقوش، التي تعكس أيضًا أساليب التواصل غير اللفظي بين أفراد المجتمع، ووفقًا لهذا المنظور، تُتيح دراسة نقوش الصخور والكهوف وسيلة لفهم التنظيم الفكري والاجتماعي والروحي لثقافات ما قبل التاريخ، كاشفةً عن الوعي الروحي والبيئي الذي كان مكونًا أساسيًا في هويتهم الثقافية.

المطلب الأول: مفهوم الفن الصخري والكهفي وطرق النقش

من أكثر الطرق شيوعًا للتعبير الفني عن شعوب ما قبل التاريخ هي فنون الصخور والكهوف، التي تُقدم لمحة نادرة عن الوعي الروحي والبيئي للمجتمعات السابقة، فبجانب إظهار الأنشطة اليومية، والصيد، وتربية الحيوانات، والعلاقات الشخصية، مثلت هذه النقوش والرسومات وسيلة لنقل والتعبير عن الآراء الدينية والمفاهيم الثقافية وأنماط الحياة، ومن خلال دراسة هذه المنحوتات، يُمكن للباحثين استكشاف الأشكال الإبداعية والتطورات التكنولوجية التي استخدمها شعوب ما قبل التاريخ، سواءً في اختيار أدوات النقش أو تقنيات الرسم والتلوين، كما تُظهر هذه المنحوتات مستوى التخطيط المسبق والبنية المفاهيمية التي تدخل في صناعة المنحوتات واللوحات. تُعد دراسة فنون الصخور والكهوف مهمة لأنها تُقدم سجلًا تاريخيًا حيًا يُمكننا من رؤية كيفية تفاعل الناس مع محيطهم الطبيعي والاجتماعي، وفهم كيف عكست أعمالهم الفنية معتقداتهم الروحية ورموزهم. ويُمكن للباحثين تحديد الصفات الجمالية والأسلوبية للنقوش، وتتبع التطور التدريجي للقدرات الفنية والإبداعية البشرية من خلال دراسة أشكالها وأنماطها، إن فهم أساليب النقش المختلفة - سواءً أكانت غائرة أم بارزة أم باستخدام النقاط والخطوط - يُمكننا من تقدير الوقت والجهد الذي بذله سكان ما قبل التاريخ للتعبير عن أفكارهم وآرائهم.

تهدف هذه الدورة إلى تزويد الطلاب بفهم شامل لمفهوم فن الصخور والكهوف، واستعراض أهميته الفنية والتاريخية، واستكشاف أساليب وتقنيات النقش، يُساعد هذا على فهم السمات الجمالية والإبداعية للنقوش، كما يُسلط الضوء على الدور الحيوي لهذه الفنون في الحفاظ على التراث الفكري والثقافي للثقافات القديمة، ويعكس الوعي البيئي والروحي لسكان ما قبل التاريخ.

• مفهوم الفن الصخري

من الأمثلة الملموسة على التطور الفكري والثقافي للإنسان القديم فنّ الصخور، فقد استطاع البشر التعبير عن حياتهم اليومية من خلاله. كأحد مظاهر الفنّ الصخري (سواءً كان نقشًا أو رسمًا) يتضمن مجموعة من المفاهيم والأفكار، بالإضافة إلى وصف العالم الطبيعي. فالتواصل (أي تعريف شيء ما وجعله مرئيًا) ضروري للتجلي^٤.

شهد أواخر عصر ما قبل التاريخ نموًا فنيًا كبيرًا في أنحاء كثيرة من العالم، وقد أظهر الباحثون أن هذه العملية استمرت طوال العصر الحجري الحديث، ونكتشف أشكالًا فنية عديدة، مثل الرسومات والنقوش، وأخيرًا النقوش على الصخور، تُوجد النقوش الصخرية، أو فنّ الصخور، بالقرب من المناطق الجبلية، في البداية كان الهدف من فنّ الصخور والرسومات إنشاء نظام تواصل مُحَدَد. ولعلّ الأشياء التي أراد القدماء حفظها في ذاكرتهم موصوفة في فنّ الصخور، والذي يُمكن اعتباره نوعًا بدائيًا من الكتابة^٥.

هناك نوعان من فنّ الصخور: النقش على الصخور والرسم عليها، في النوع الأول، تُرسم الصور على الصخور بألوان مختلفة، وخاصةً على جدران الكهوف والملاجئ، حيث تكون احتمالية بقاءها أكبر، لأن رسمها في الخارج يؤدي إلى تدهور الأصباغ مع مرور الوقت، أما في النوع الثاني، فهو مهارة استخدام أداة حادة لنقش صورة على صخرة، ونظرًا لمقاومتها العالية للتغيرات المناخية، غالبًا ما تُكتشف هذه النقوش الصخرية في الخارج^٦.

• أهمية دراسة الفن الصخري

لقد حُفظت أنواع أخرى من الفن في مواقعها الأصلية، والتي غالبًا ما شكّلت نطاقها وتطبيقها، يجب مراعاة جودة الموقع الذي عُثِر فيه على هذا الفن، وخاصةً بيئته الطبيعية، بجانب قيمته الفنية وأهميته الثقافية، وإنجازات غالبًا ما تُقدّم مواقع الفن الصخري ثروةً من المعلومات حول الأنشطة البشرية على مدى آلاف السنين، ونظرًا لأهمية هذه القيمة لفهم مواقع الفن الصخري بشكل عام، يُمكن مقارنة القيمة الجمالية للفن الصخري بمواقع أخرى، ومع ذلك لا يُمكن تحديد هذه القيمة إلا بعد بحث ومقارنة مُعمّقين، يُتيحان فهمًا أعمق للتسلسل والأنشطة البشرية ذات الصلة، وفي بعض الحالات، المعتقدات والعادات، من الصعب تقييم تسلسلات الفن الصخري وقياس أدائها دون جردٍ مناسب، قد نستنتج من آلاف الصور والطبقات الموجودة في العديد من مواقع الفن الصخري أنها تقتصر إلى عناصر، يتطلب التقييم المُعمّق فهمًا أعمق لقيمتها الفريدة، وبيئتها الجغرافية الثقافية، وارتباطها بالمجتمعات الحديثة - وهو ما لا يُمكن تحقيقه غالبًا إلا من خلال البحث والدراسة المنهجية^{vii}.

• طرق النقش في الفن الصخري والكهفي

يُعدّ النقش أقدم من الرسم، تُتبع التفاصيل بعد نقش الشكل العام على الجرانيت، بالقرب من لوحة محفورة عمرها أكثر من 6000 عام في الصحراء الليبية، عُثِر على عينة من أدوات النقش أو النحت، ويبدو أن بعض الرسومات الصخرية قد رُسمت باستخدامها. هناك نوعان من النقش الصخري:

إما أن يكون غائرًا، أي أن الشكل المحفور مدفون تحت مستوى السطح الخلفي.
أو أن يكون مرتفعًا، أي أن الشكل المحفور يرتفع تدريجيًا فوق السطح^{viii}. تشير العديد من الخطط إلى أن فناني الصخور كانوا ينقشون عددًا من الأشكال التجريبية قبل نقش اللوحة النهائية، يتم تحديد هذه الأشكال باستخدام إزميل العمل في نقاط متتالية حتى تصل إلى خط واضح وواسع وعميق ومنظم، ثم يتم تلميعها بأداة حادة كما بالشكل (1).



شكل 1 تلميع الشكل بأداة حادة

ومن بين أكثر التقنيات شيوعًا المستخدمة في إنهاء النقوش :

1. طريقة الصقل

والتي لا تتضمن النقش أو التخطيط على الصخر إلا بعد تحضيره. لا توجد لوائح تحكم هذا الإجراء الأساسي

2. طريقة الحز الغائر

يخضع سطح الصخر لتقنية النقش البارز القاعدي، يتراوح عرض الشق بين 3 و5 مم وعمقه حوالي 3 مم، ويتم إنشاؤه باستخدام إزميل، قد يصل طوله أحيانًا إلى 18 سم، أو إزميل حجري أو عظمي. يبلغ السمك الإجمالي للنقش الناتج باستخدام طريقة slickenside حوالي 10 مم، غالبًا ما يكون الشق على شكل حرف V أو حرف U بطريقة الطرق، كما بالشكل (2).



شكل 2 طريقة الحز الغائر

3. طريقة التوتيد أو الطرق

هي التي تتضمن إجراء العديد من الضربات بإزميل في اليد ثم طرده بحجر حتى يتبقى ثقب صغير، ثم تتوالى هذه الثقوب الصغيرة واحدة تلو الأخرى حتى نحصل على الشكل المطلوب منها ^{ix}.

٤. تقنية النقاط

باستخدام أداة حادة، يُرسم نوعان من الخطوط، أحدهما بمطرقة حجرية، والآخر بخط ذي سُمْك مختلف وثقوب صغيرة متغيرة تتراوح أحجامها بين ٢ و ٤ سم، بالمقارنة مع الخط السابق، يتميز هذا الخط بانتظام أكبر ^x.

• النقوش الصخرية

يُعرف مصطلح "النقوش الصخرية" صور الأشخاص والحيوانات والأدوات والرموز والنصوص التي نقشها إنسان ما قبل التاريخ على صخور الهضاب والجبال وغيرها، وتختلف هذه النقوش عن الرسوم الصخرية في أن اللوحات تُصنع بألوان طبيعية، بينما تُنقش الصخور بأدوات حادة ^{xi}.

• الفن الكهفي

باستخدام الرسوم الملونة أو النقوش الحجرية، أنتج سكان ما قبل التاريخ فن الكهوف، وهو نوع من الفنون الصخرية، على جدران وأسقف الكهوف، يُطلق على هذا النوع الفريد من الفنون الصخرية، الذي يُبرز المناطق الداخلية المحصورة للكهوف، اسم "فن الكهوف"، يُمثل هذا الفن الوعي الرمزي والثقافي والديني لمجتمعات ما قبل التاريخ، ويحاول تصوير الحياة اليومية والحيوانات والأحداث الطبيعية والمعتقدات الروحية، يُعد فن الكهوف أحد أهم مصادر المعرفة حول الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية لسكان العصر الحجري، إذ يُقدم دليلاً واضحاً على براعتهم الإبداعية والفنية، بجانب تفاعلهم مع محيطهم.

بشكل عام، يشير مصطلح "فن الكهوف" إلى المنحوتات والرسومات المكتشفة في الكهوف الأوروبية، والتي يعود تاريخها إلى ما بين 40,000 و 14,000 عام، خلال العصر الجليدي، اكتُشفت نقوش العصر الحجري في كهف ألتاميرا بإسبانيا عام 1879، ووفقاً للخبراء فإن هذه الرسوم من صنع الإنسان العاقل، أو الإنسان الحديث، تُنسب معظم اكتشافات فن الكهوف إلى كهوف لاسكو في فرنسا، حيث اكتُشف ثاني فن كهفي عام 1940، كما عُثر على رسومات أخرى من العصر الحجري في البرتغال ورومانيا وألمانيا وإنجلترا ^{xii}.

• الألوان المستخدمة في فن الكهوف

استخدم رسامو الكهوف، المعروفون أيضاً بفنانا العصر الحجري، مجموعة متنوعة من المواد لرسم الألوان، استُخدم الطين لصنع درجات مختلفة من الأحمر والبني والأصفر، أما اللون الأبيض، فكان يُصنع من الكاولين أو الكالسيت الأبيض، بينما يُصنع اللون الأسود من الفحم أو ثاني أكسيد المنغنيز أو العظام المتفحمة، ولمساعدتها على الالتصاق بجدران الكهف، كانت تُسحق هذه المواد باستخدام عظام أكتاف الحيوانات وتُخلط مع كربونات الكالسيوم وعصير الخضار والدهون الحيوانية والدم ونخاع العظام والألبومين والبول، بجانب

استُخدم فوسفات الكالسيوم (المشتق من عظام الحيوانات) ومقويات مثل الفلسبار والبيوتاييت أو الكوارتز المسحوق للمساعدة في التصاق الصبغة ومنعها من التكسر أثناء جفافها، ووفقاً لعلماء الآثار، فقد نفخ سكان العصر الحجري هذه الألوان على الصخور باستخدام القصب أو أنابيب عظام الحيوانات المجوفة، وقد اكتشف العلماء في هذه الكهوف عظاماً لا تزال تحمل آثاراً لهذه الألوان^{xiii}.

• النقش الكهفي

النقش الكهفي هو شكل من أشكال الفن البدائي القديم يتمثل في الحفر أو الخدش على جدران الكهوف وأسقفها باستخدام أدوات حجرية أو معدنية بسيطة، بهدف رسم صور أو رموز تعبّر عن حياة الإنسان الأول ومعتقداته.

مما سبق، يتضح أن نقوش الكهوف والصخور لم تكن مجرد محاولات بدائية للزخرفة أو التسلية، بل كانت التعبيرات الأولى عن وعي الإنسان بوجوده وبيئته الاجتماعية والبيئية، استخدم الأقدمون هذه الرسوم والنقوش للتعبير عن أفكارهم وآرائهم ومخاوفهم وتطلعاتهم بلغة بصرية مشتركة. كما استخدموها لتسجيل طقوسهم الدينية وأنشطتهم اليومية، وللتأكيد على ارتباطهم الجوهري بالطبيعة، بمواردها وقدراتها الغامضة، فجانبا قيمتها الجمالية، تُقدّر هذه النقوش لجوانبها الرمزية والأنثروبولوجية، التي تُظهر كيف تطورت القدرات العقلية والإبداعية للإنسان، وكيف نشأ التفكير الرمزي لديه.

يمكن للباحثين أيضاً إعادة تمثيل الحياة الفكرية والروحية للأفراد القدماء من خلال دراسة هذه النقوش، فهي تُظهر أن هؤلاء البشر كانوا أكثر من مجرد كائنات فطرية؛ فقد تمكنوا من ترجمة تجاربهم إلى معاني ورموز بصرية ذات دلالات اجتماعية وروحية عميقة، نتيجةً لذلك تُشكّل نقوش الصخور والكهوف أساساً لفهم أصول الثقافة الإنسانية، ومصدراً موثقاً لإعادة تفسير التاريخ البشري المبكر، وهذا يُساعدنا على فهم طبيعة التفاعلات بين المادي والروحي، وكذلك بين الإنسان والبيئة، في المراحل الأولى من تطور الحضارة.

المطلب الثاني: الدلالات الرمزية والجمالية في النقوش الصخرية والكهفية

كانت النقوش على الصخور والكهوف من أكثر الطرق شيوعاً للتعبير عن فهم الإنسان لما يحيط به، فهي تتجاوز مجرد زخارف أو لوحات؛ إذ تحمل معاني روحية ورمزية تُجسّد أفكار وقيم وحضارات حضارات ما قبل التاريخ المبكرة، استخدم البشر هذه المنحوتات كنوع من اللغة البصرية للتفاعل مع بيئاتهم الاجتماعية والطبيعية، وتسجيل أنشطتهم اليومية كالصيد وجمع الطعام، ونقل علاقاتهم بالعالم الطبيعي والحيوانات والكون.

تميزت هذه المنحوتات بمجموعة واسعة من الرمزية، كالرموز الهندسية والكونية التي تمثل محاولات الإنسان لفهم الظواهر الطبيعية وربطها بالعالم الروحي، والرموز الحيوانية التي تمثل القوة والخصوبة والحماية، والرموز البشرية والمجردة التي تُجسّد الهوية الجماعية والمعتقدات الروحية، يُمكننا من خلال دراسة هذه الرموز أن نتعلم كيف كوّن الإنسان ما قبل التاريخ أفكاره عن الطبيعة والموت والحياة، يُمكننا أيضاً أن نتعلم كيف استخدموا الفن الصخري للتعبير عن معتقداتهم الروحية وترك رسائل رمزية للأجيال القادمة، كما يتطلب استكشاف وعي الإنسان البدائي وإدراكه للعالم من حوله التركيز على المعاني الرمزية الموجودة في نقوش الصخور والكهوف، هذا يسمح لنا بكشف جوانب مهمة من الفكر البدائي وفهم كيفية ارتباط الإنسان ببيئته، بالإضافة إلى علاقاته الروحية والثقافية بمحيطه الطبيعي.

• مفهوم الرمز

يُطلق على العنصر الملموس الذي يرمز إلى مبدأ أخلاقي اسم الرمز، ومن خلال دمج الأخلاق (المحتوى المدلول) مع صور العناصر الحسية (أشكال الرموز)، تُتاح للفنان فرصة رؤية أوجه التشابه بين ما هو مادي وما هو عاطفي، وهنا يلعب خيال الفنان وواقعه دوراً مشتركاً في خلق الرمز، الذي يتطلب أن يكون ذا قيمة عاطفية وفكرية وفنية واجتماعية، ووفقاً لرانلد كلارك إذا تعمقنا في الرموز أكثر من مجرد تحليل سطحي، سنكتشف أن المفاهيم المحيطة بها هي ما يمنحها أهميتها، وليس الرمز نفسه، وبحكم التعريف، تمثل الرموز ثورة في الأفكار أو المشاعر الإبداعية، وقد تندمج وتتداخل لتنتج أشكالاً معقدة، وربما مُحيرة؛ فهي ليست كيانات مستقلة^{xiv}.

الرمز هو لغز أو أحجية ذات معنى يستخدمها الشخص للدلالة على شيء أو معنى محدد أو مطلق، بمعنى أنه يشير إلى شيء موجود، كما يتضح من توضيح العلاقة بين الرمز والفكرة التي يرمز إليها، في هذه الحالة تحل العلامة محل هذا الشيء كما لو كان هو نفسه، إذ يُتعرّف عليه مباشرةً بهذا المعنى، بغض النظر عما إذا كان متوافقًا مع العادات القديمة أو مقبولًا فيها، من أمثلة الرموز المرتبطة بالإيمان الهلال في الإسلام ورمز الصليب في المسيحية، فبجانب أنه يُملّي العرف والتاريخ أن للعلامة معنىً مميزًا لدى بلدان وشعوب مختلفة، في المقابل يُنظر إلى الثعبان الآن على أنه رمز للشر والعداء، على الرغم من أن المصريين القدماء اعتبروه حامياً مقدساً، وفقًا لنظرية إميل ديركهيم في استخدام الرموز، لا يمكننا تفسير مشاعرنا الشديدة إلا بربطها بشيء ملموس وأصيل، يجب على شيء ما استخدام رمز للتعبير عن هذه المشاعر واستبدالها إذا لم يكن قادرًا على وصفها، بعد ذلك يتجاوز الرمز كونه مجرد إشارة محددة، ويصبح واقعًا ملموسًا ووفقًا للباحث، فإن الرمز ليس سوى لغة بصرية يستخدمها الفنان للتعبير عن مشاعره وعواطفه تجاه المفاهيم والمعتقدات التي تُشكله من منظور فني. وتتحسن قدرتنا على فهم الفنون ودراساتها كلما ازدادت معرفتنا بتلك اللغة واكتشافنا المزيد من التفسيرات لها^{xv}.

• الرموز الحيوانية

في عصور ما قبل الإسلام، كانت الحيوانات جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس، كانت جزءًا لا يتجزأ من بيئتهم الطبيعية، لذا ليس من المستغرب أن نرى حولهم جبالًا وصخورًا وخيامًا ونباتات مياها، إلى جانب حيوانات وطيور وحشرات ونباتات متنوعة. كل هذا ظهر، من بين أمور أخرى، في أسماء رجالهم ونسائهم، وفي أدبهم: شعرًا ونثرًا وقصصًا. كانت الخيول والإبل من الحيوانات الأساسية في عصور ما قبل الإسلام، تليها الأبقار والحمير الوحشية والنعام والكلاب، أما بقية المخلوقات، فشملت الحشرات والطيور والزواحف والحيوانات المفترسة، وقد تطور الأدب الحيواني نتيجةً للحكايات والقصص التي حُبكت حول هذه المخلوقات، بجانب الأوصاف والرموز المستمدة من حياتها اليومية^{xvi}. تُشكل الأشكال الحيوانية الغالبية العظمى من الرسوم الصخرية الرمزية الموجودة في العديد من المناطق، كما أن إبداعها واسع الانتشار، وهذا يُظهر اهتمام الرسامين القدماء بالحيوانات بشكل خاص، وأن صور الحيوانات غالبًا ما كانت غير مرتبطة بالشخصيات البشرية، فيما يلي بعض أكثر المخلوقات شيوعًا^{xvii} :

أ- الأبقار

تختلف قرون الأبقار، فبينما يمتلك بعضها قرونًا أمامية، يمتلك بعضها الآخر قرونًا متوازية، كما يصف هيرودوت أبقار غرامانتيس بأنها كانت ذات قرون متجهة للأسفل، وتغوص في الأرض كلما حاولت التقدم، ونتيجةً لذلك، كانت تضطر للرعى للخلف.

ب- الفيلة

اكتُشفت لوحات لفيلة يبلغ ارتفاعها ستة أمتار في وادي جارات بتاسيلي، إلى جانب فيلة بيضاء ربما كانت أسطورية، اكتُشف فيل آخر في منطقة تيساليتين^{xviii}.

ت- حيوانات أخرى

إضافة إلى هذه الحيوانات المذكورة فقد جسدت حيوانات أخرى منها: الجاموس، الغزال، الأسد الفهد الحمار الوحشي، والأروي والزرافة المجسدة .

• الرموز الحيوانية وعلاقتها بالمعتقدات البدائية

كانت الحيوانات من أكثر المواضيع شيوعًا التي رُسمت بشكل بارز في منحوتات الصخور والكهوف، فبالإضافة إلى تجسيدها للحياة اليومية أو مشاهد الصيد، تحمل هذه المنحوتات معانٍ رمزية وروحية عميقة مرتبطة بمعتقدات الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، فعلى سبيل المثال نظرًا لارتباطها الوثيق بتوفير الطعام والحليب، كانت الأبقار تُعتبر رمزًا للخصوبة والوفرة، ولذلك اكتسبت مكانة شبه مقدسة

في الطقوس الزراعية والإنجابية والأنشطة السحرية، أما المخلوقات المفترسة، كالأسود والفهود، فقد مثلت قدرات خارقة للطبيعة وعجائب الطبيعة، وكان يُستعان بها أحياناً مجازياً لتزويد المجموعة بالقوة أو الحماية، وبالمثل منحتها منحوتات الأفيال والزرافات ووحيد القرن مكانة أسطورية في العقل الجمعي كحيوانات استثنائية تُظهر القوة وطول العمر، مما يعكس ارتباط الإنسان القديم ببيئة أكثر ثراءً ورطوبة من صحراء اليوم، تطورت الرموز الحيوانية في النقوش إلى طريقة للتفاعل مع العالم غير المرئي وتمثيل التفاعل بين البشر والقوى الطبيعية، والتي كان يُنظر إليها أحياناً على أنها مصدر للحياة وسبل العيش وأحياناً أخرى كمصدر للدهشة والرهبة.

في حياة البشر الأوائل، كانت نقوش الصخور والكهوف ذات أهمية بالغة، فقد كانت بمثابة وسيلة للتعبير عن أفكارهم وقيمهم ومعتقداتهم، بجانب كونها رسومات، يرتبط الرمز بالمعنى الذي ينقله النحت، كالقوة والخصوبة والشعور بالانتماء للمجتمع، بينما يرمز الرمز إلى العنصر الملموس في هذه التصاميم، تُضفي الصفات الجمالية للرمز على النقوش بُعداً فنياً إلى جانب غرضها الرمزي، مما يعكس قدرة البشر على نقل هذه الأفكار بطريقة متناغمة وجذابة، يُساعد فهم هذه المكونات على فهم إدراك شعوب ما قبل التاريخ، وكذلك تفاعلاتهم الاجتماعية والثقافية والبيئية.

• القيم الجمالية للرمز وعلاقته بالفن

إن جوهر المبدع ومفهومه ومشاعره وعواطفه هي ما يُضفي على العمل سماته الفنية، هذه السمات الجمالية تدفع العين إلى التفاعل وتعديل اتجاهها، في الفنون البصرية، غالباً ما يكون الرمز الوحدة الإبداعية التي يختارها الفنان من محيطه لتعزيز عمله ومنحه شخصية مميزة. يجب أن ينقل الرمز مشاعر الفنان وعواطفه، ويُجسد آراءه وأفكاره، وأن يكون مُشبعاً بالقيم الثقافية والاجتماعية لمحيطه، قد يكون الرمز شكلاً، كحيوان أليف، أو نبتة يُحبها الناس، أو حيوان شرس يخشاه المجتمع، أو طائراً مفضلاً، كما قد يكون شكلاً جديداً يُجسد وجهة نظر الفنان، يرى البعض أن الرمز هو جهدٌ لبلوغ عالم الأفكار من خلال تجاوز الواقع، وقد استطاعت الرمزية تعميق أبعاد الفن وأفكاره وتوسيعها، وهو أيضاً خلاصة الفكرة المراد إيصالها، ونتيجة ثقافة فكرية، ويمكن اعتباره تمثيلاً بصرياً لمفهوم أو صفة خفية^{xix}.

أشار عبد الرحمن النشار إلى أن جماليات الرمز تتضمن معنىً مرتبطاً بالمشاعر والعواطف، ما دام هذا المعنى مُتجسداً في صورة أو شكل ليصبح واقعاً مستقلاً بذاته، مُستمدّاً من الفكرة أو الواقع أو المجهول، ولأن مصطلح "الرمز" يتقلب ويتخذ ألواناً مختلفة باختلاف المجال الإبداعي أو المعرفي الذي يُستخدم فيه، يرى الباحث أنه ربما لا توجد مدرسة فنية تخلو من جماليات الرمز، ونظراً لتطور المفاهيم والمثُل الجمالية مع تنوع الفنون، فقد يكون هذا هو السبب الذي يجعل العديد من الباحثين يصفون هذه العبارة أحياناً بأنها غير دقيقة أو مربكة، فأحياناً تُستخدم العلامة لترمز إلى شيء آخر وتحل محله، وأحياناً أخرى نكتشف أنها تعني ما تُشير إليه لا ما هي عليه، وهذا هو أساس الأسلوب الذي يُشار إليه أحياناً بالأسلوب الرمزي، الذي يُحوّل العمل الفني إلى إشارات ذات معانٍ جمالية، تُعبّر الخطوط والألوان عن الأفكار والمشاعر التي يود الفنان إيصالها للجمهور، في الواقع العلامات الفنية والأشكال والألوان كلها رموز، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الفنان عندما يرسم شكلاً أو لوناً معيناً على لوحته، يصبح رمزياً، ويصبح هذا الشكل أو اللون رمزاً تلقائياً، فالعمل الفني، بطبيعته، يوحي بأكثر مما هو عليه^{xx}.

ترى منى ندا أن الرمزية الفنية جزيرة شكلية وجوهرية، بعد أن أضيفت إليها علاقات وصياغات تنظيمية متعددة تُنتج المعنى، فهي تُضفي عليها شخصية مميزة وشكلاً فنياً معبراً، مُكثفةً المفردات التي تُكوّنها، وما يميزها هو قدرتها على استيعاب صيغ مختلفة تبعاً للظروف والأحداث التي تؤثر عليها في مجالات مُحددة^{xxi}.

• القيم الجمالية للرمز وعلاقتها بالنقش

إلى جانب غرضها الرمزي البحث، تُضفي الصفات الجمالية للرموز بُعداً فنياً على نقوش الصخور والكهوف، الرمز هو الرسالة التي ينقلها هذا الشكل، بينما النحت هو الشكل الفعلي الذي يظهر على الصخور أو جدران الكهوف، تتعكس طريقة إيصال هذا المعنى من

خلال التناغم والتوازن والخطوط والألوان والحركة الإبداعية لجعل الرسالة الرمزية أكثر جاذبية ووضوحاً في مُثل جمالية، يمكننا فهم كيف استطاع الناس في عصور ما قبل التاريخ التعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم بطريقة متماسكة وجميلة جمالياً مع الحفاظ على القيمة الرمزية والأخلاقية للعمل الفني من خلال دراسة العلاقة بين النحت والرمز وجمالياته.

بعد الحديث عن الدلالة الجمالية للرموز وعلاقتها بالنقوش عمومًا، نكتشف أن هذه الأفكار تتجلى بالفعل في ليبيا، حيث تزخر صحرانها بنقوش صخرية وكهفية تُصوّر تجربة إنسان ما قبل التاريخ في التعبير عن أفكاره وآرائه، فبالإضافة إلى الاهتمام بالجاذبية الجمالية والمعنى الأخلاقي، تُجسّد هذه النقوش أيضًا الحياة اليومية، والتغيرات المناخية، والمخلوقات التي تعايش معها الإنسان، وكيفية تفاعله مع الطبيعة، ويمكننا أن نتعلم كيف استخدم إنسان ما قبل التاريخ فنّ الصخور كلغة بصرية متكاملة من خلال دراسة هذه النقوش، التي تجمع بين القيمة الجمالية والدلالة الرمزية والارتباط بالعالم الطبيعي، ونتيجةً لذلك تُصبح الصحراء الليبية وثيقةً حيةً تُوثّق تاريخ الحضارة القديمة، وعندما ننظر إلى هذه المفاهيم في السياق المحلي، نكتشف أن ليبيا هي مثال رائع يوضح كيف يتم استخدام هذه الجماليات والرموز في مواقف العالم الحقيقي من خلال نقوش الصخور والكهوف المنتشرة في جميع أنحاء صحرانها.

• نقوش ما قبل التاريخ في الصحراء الليبية

هناك مئات الآلاف من الأعمال الفنية في الصحران الليبية، معظمها نقوش مغمورة على ألواح صخرية عُثر عليها في ملاجئ وكهوف جبلية، تُشكل الجداريات الملونة جزءًا ضئيلاً جدًا من هذه القطع الفنية، بجانب كونها أكثر عددًا من اللوحات الملونة، تتميز هذه المنحوتات بتوزيع جغرافي أوسع، تنتشر هذه النقوش عبر الجبال الغربية، والجبال الخضراء، والحمامة الحمراء، وجبال العوينات، وجبال تدرارت أكاكوس، ولا توجد لوحات ملونة من عصور ما قبل التاريخ إلا في الأجزاء الجنوبية من ليبيا، وتُعدّ الوديان الواقعة جنوب الحمامة الحمراء والمرتفعات الصخرية بين وادي الحياة (الأجال) ووادي البرجوج موطنًا لأكثر تركيز لهذه المنحوتات، في أقصى جنوب غرب الجماهيرية، في مرتفعات تادرارت أكاكوس، تنتشر هذه المنحوتات على نطاق واسع، تُصوّر معظم هذه المنحوتات كائنات استوائية ضخمة كالأفيال والزرافات ووحيد القرن والتماسيح وأفراس النهر، إذا دققنا النظر في موضوعاتها، وتُصوّر منحوتات أخرى شخصيات بشرية تجريدية ومنحوتات أبقار^{xxii}.

في تاريخها المعترف به والدقيق، خلقت هذه النقوش ولا تزال تخلق معضلة، يتفق العلماء على أنها أُجريت في ظل ظروف مناخية وبيئية مختلفة عن ظروف الجفاف والصحراء الحالية، ونتيجة لذلك لا يوجد خيار آخر سوى تقديم ملخص موجز لجيومورفولوجيا المنطقة والتغيرات المناخية التي حدثت فيها، لقد حولت هذه التغيرات المنطقة من حدائق خضراء ذات أنهار متدفقة وبحيرات واسعة وعميقة منتشرة في جميع أنحاء مناطقها، كانت هذه المناطق موطنًا لمجموعة متنوعة من الحيوانات، مثل أفراس النهر والزرافات والنعام ووحيد القرن والأسود والنمور والتماسيح والسنط والسنط وبعض أشجار الطراف والعناب والسنط والرطم في قيعان الوديان، فقط الحيوانات مثل الغزلان والظباء والفهود التي يمكنها التكيف مع هذا الموطن المعادي هي التي ستكون قادرة على العيش هناك. لتبسيط الأمور، يمكن تصور الصحراء الليبية على أنها هضبة من الحجر الرملي النوبي الذي ينحدر بلطف إلى البحر الأبيض المتوسط من جبال تادرارت أكاكوس وتيبستي وأوينات.

خلال العصرين الباليوجيني والنيوجيني، شهدت هذه المنطقة الشاسعة مجموعة متنوعة من التغيرات الجيومورفولوجية، وقد انقسمت المنطقة إلى العديد من الأقسام الرئيسية بواسطة خليج سرت الشاسع، الذي ضرب بعيدًا في الجنوب بالقرب من سفوح تيبستي، وشهدت هذه الأقسام تغيرات جيولوجية وgeomorphological مميزة، ولكن بحلول العصر الميوسيني، بدأت الخصائص الرئيسية المعروفة للمنطقة في الظهور، ومع ذلك نستنتج أنه من حيث التطور الجيومورفولوجي، فإن منطقة تادرارت أكاكوس والمناطق المحيطة بها من بين أقدم المناطق في ليبيا، شهد العصر الباليوزوي ظهور وتكوين صخورها، والتي استمرت في التطور على مدى العصر الوسيط، تشكلت الشرفة

الثانية كاستجابة تكتونية لاصطدام الصفيحتين القاريتين الأفريقية والأوروبية، مما أدى إلى ظهور نهر إلبه في أوروبا وجبال الأطلس والجبال الخضراء في شمال إفريقيا^{xxiii}. تطورت جبال تادرارت أكاكوس بشكل كامل عندما ظهرت جبال الأطلس والجبال الخضراء وجبال الألب في أواخر العصر الإيوسيني وأوائل العصر الميوسيني (منذ 55 إلى 100 مليون سنة)، وبدأت وديانها في نحت التراس الثاني، يظهر الجبل الأخضر لأول مرة كقبة صخرية من الحجر الجيري تتحدر ببطء إلى الجنوب ثم بشكل مفاجئ ودراماتيكي نحو البحر خلال العصر الإيوسيني والبليوسيني (منذ 90 إلى 35 مليون سنة)، حدث هذا في نفس الوقت الذي ظهر فيه الجبل الغربي، وهو حافة صخرية تشكل قوسًا يمتد من نقازة (الخمس) إلى قابس (تونس) ويطل على سهل الجفارة، كسمة مميزة للامتداد الشمالي لهضبة الحمادة الحمراء، نشأ نظام الوادي الحالي في جبل نفوسة في أواخر العصر البليوسيني، بعد تدفق الحمم البركانية، وفقًا للنشاط البركاني الذي حدث طوال عصر البليوسين والبليستوسين (ليباريني)^{xxiv}.

تتجلى الصلة العميقة بين الإنسان ومحيطه في عصور ما قبل التاريخ، قبل ظهور الحضارات المنظمة، في النقوش الصخرية التي اكتُشفت في الصحراء الليبية، فهي أكثر من مجرد نقوش بديعة محفورة على الصخور؛ بل هي دليل حي على تغيرات بيئية ومناخية كبيرة حوّلت المنطقة من جنة خضراء زاخرة بالبحيرات والأنهار والحيوانات الضخمة إلى صحراء قاحلة اتسمت بالعزلة والعطش، تُظهر هذه النقوش أن الإنسان البدائي لم يكن مجرد مراقب سلبي لهذه التغيرات؛ بل بذل جهدًا لتوثيق تفاعلاته مع البيئة والحيوانات، بالإضافة إلى نقل فهمه الرمزي والروحي للكون، يمكننا الآن إعادة قراءة تاريخ ليبيا الطبيعي والبشري من خلال هذا التراث الإبداعي، مدرّكين البُعد الحضاري العميق الذي حوّل الصحراء إلى كتاب مفتوح يروي قصة استمرارية وتكيف وإبداع امتدت لآلاف السنين.

بناءً على ما سبق، يمكننا الاستنتاج أن نقوش الصخور والكهوف لم تكن مجرد قطع فنية خلابة فحسب، بل كانت أيضًا وسيلةً رئيسيةً لإنسان ما قبل التاريخ للتعبير عن أفكاره، بجانب روابطه الاجتماعية والروحية بالعالم الطبيعي، ومن خلال الجمع بين الصفات الجمالية والرمزية، استطاع القدماء الحفاظ على معتقداتهم وأفكارهم وأحداثهم اليومية من خلال الرموز، محوّلين الكهوف والصخور إلى سجلات بصرية بالغة الأهمية،

تُظهر النقوش الليبية، التي تُظهر مجموعةً واسعةً من الجغرافيا والبيئات، الصلة العميقة بين الناس ومحيطهم، وكيف انعكست رؤيتهم للطبيعة والمجتمع في رموز دقيقة ومتناسكة، تُتيح لنا دراسة هذه النقوش نظرةً فريدةً إلى الإدراك البدائي، وتُظهر قدرة الإنسان على الإبداع والتعبير عن نفسه باستخدام تقنيات بصرية معقدة رغم محدودية الموارد، كما تُظهر هذه النقوش حساسيةً جماليةً متطورةً وفهمًا ثقافيًا وفلسفيًا عميقًا.

في نهاية المطاف، يمكن القول إن الرموز والجماليات الموجودة في نقوش الصخور والكهوف تُمثل مرآةً حيّةً للتجربة الإنسانية عبر الزمن، مما يُتيح لنا فهمًا أعمق لتطور الفكر الإنساني والعلاقة الوثيقة بين الفن والبيئة والإنسان، وتوضح براعة الإنسان القديم وإبداعه في تسجيل حضارته وتجربته الإنسانية جليّةً في الصحراء الليبية^{xxv}.

المبحث الثاني : النقوش الصخرية والكهفية كوسيلة تواصل وتوثيق

كانت النقوش على الصخور والكهوف من أكثر الطرق شيوعًا لتفاعل إنسان ما قبل التاريخ مع بيئته والتعبير عن نفسه، وقد مثّلت هذه النقوش أساليب معقدة للتواصل الاجتماعي والتعبير الرمزي، أكثر من كونها علامات عشوائية على الصخور والكهوف، وبما أن هذه النقوش شكّلت لغة غير لفظية قادرة على إيصال رسائل حيوية للأجيال القادمة، يُمكن القول إن إنسان ما قبل التاريخ استخدمها كوسيلة لنشر الأفكار والمعلومات عبر الزمان والمكان، ووفقًا لهذا الرأي تُعدّ هذه النقوش مصدرًا قيمًا لفهم أفكار وثقافة ما قبل التاريخ، إذ تُوفّر سجلًا بصريًا يُصوّر عناصر الحياة اليومية، والعمليات التجارية، والطقوس الدينية، ومجموعة من التجارب الإنسانية.

تُثير هذه النقوش اهتمام الباحثين لأنها تُظهر كيف استخدم أفراد ما قبل التاريخ أدوات التسجيل والتواصل المتاحة لهم ببراعة، ولأن الكتابة لم تكن قد نشأت بعد أو أصبحت متاحة، استخدم الناس الصور لتوصيل أفكارهم بطريقة يفهمها الآخرون، أظهرت الأبحاث أن لهذه النقوش دلالات اجتماعية ومعرفية بجانب دلالاتها الجمالية والفنية، فقد سجلت أحداثاً مهمة، كالطقوس الدينية أو المواسم الزراعية، وساعدت ثقافات ما قبل التاريخ على تنظيم أنشطتها، كالصيد والزراعة، لذا شكّلت النقوش حلقة وصل بين الماضي والحاضر.

كما مثلت النقوش على الصخور والكهوف وسيلةً لشعوب ما قبل التاريخ لتسجيل معارفهم وتجاربهم الحياتية، فهي توثق حياة أسلافهم وتجاربهم، مما يساعدنا على فهم كيفية تفاعلهم مع الناس والبيئة، كما تُظهر مستوى النمو الفكري والقدرة على التخطيط والتوثيق، ووفقاً للعديد من النقوش، أدرك الناس الأوائل ضرورة تنظيم نقل المعرفة وحفظها، سواء لأسباب تعليمية أو اجتماعية، من أجل تحسين العلاقات داخل المجتمع. يُمكن اعتبار نقوش الصخور والكهوف أداة ذات غرضين: أولاً، كوسيلة للتواصل بين الناس، وثانياً، سجلاً تاريخياً يُوثق أفعال البشر ويكشف عن أنماط تفكيرهم وسلوكهم في عصور ما قبل التاريخ، وعليه يبحث القسم الثاني في كيفية استخدام النقوش كوسيلة للتواصل وسجل للمناسبات المهمة والحياة اليومية، من خلال دراسة المعاني الرمزية التي نقلتها، بالإضافة إلى الاستراتيجيات والأساليب الإبداعية التي استخدمها الناس لنقل هذه المعرفة عبر العصور.

تتبع هذه النقوش أيضاً مدى تواصل إنسان ما قبل التاريخ مع بيئته ومحيطه الاجتماعي، استخدمتها المجتمعات البدائية لإظهار هويتها الثقافية وشعورها بالانتماء الجماعي، بالإضافة إلى كونها قناة للتواصل، ولإنشاء منظومة من القيم والأفكار المشتركة وتعزيز الروابط الاجتماعية، استخدم البشر في رسوماتهم رموزاً وأشكالاً تحمل معاني مقبولة لدى المجتمع. لم يتم اختيار محتويات النقوش ومواقعها على الصخور أو في الكهوف عشوائياً، بل ارتبطت بوظيفتها التواصلية، والتي قد تكون تعليم الأطفال، أو تسجيل الطقوس والأنشطة الروحية، أو نقل معارف الصيد، من هذا المنظور، يمكن النظر إلى نقوش الصخور والكهوف كوثيقة حية تُمثل مرآة لعمليات تفكير إنسان ما قبل التاريخ، تُظهر كيف كان قادراً على التواصل ومشاركة معرفته مع الآخرين من خلال الرموز البصرية، محافظاً على استمرارية الثقافة والمعرفة عبر الأجيال.

المطلب الأول: النقوش كأداة للتواصل بين الأفراد والجماعات البدائية

منذ فجر التاريخ، احتاج البشر بشدة إلى وسائل للتعبير عن أفكارهم وآرائهم، ومشاركة تجاربهم مع الجيل التالي، والتفاعل مع الآخرين في مجتمعاتهم والثقافات المجاورة، ففي عصور ما قبل التاريخ، عندما لم تكن هناك لغة مكتوبة أو نظام كتابة منظم، استخدم الناس أساليب بصرية أساسية لتوصيل المفاهيم والمعلومات، وكانت أكثر هذه الأساليب شيوعاً هي نقوش الصخور والكهوف، تُعدّ النقوش الصخرية من أقدم الأمثلة على التعبير الرمزي البشري، لم تقتصر وظيفتها على الجوانب الفنية أو الجمالية، بل امتدت لتصبح وسيلة للتواصل الاجتماعي والثقافي بين الأفراد والجماعات البدائية، استخدم البشر الرموز والنقوش لتوثيق الأحداث المهمة، مثل الصيد والطقوس الدينية والمناسبات المجتمعية، وللتعبير عن المعتقدات الروحية، أو لتحديد الانتماءات القبلية والجغرافية.

● أهمية دراسة النقوش

استمد المؤرخون والأكاديميون كل ما كُتب ويُكتب عن التاريخ القديم من النصوص والنقوش القديمة، التي تُعتبر مصادر رئيسية، ولأنها تُعبّر عن وجهة نظر مُنظّم الحدث نفسه، فهي المصادر الرئيسية المُعتمدة، تُنشئ هذه النقوش صفحات تروي أساطير وتقاليد شعوب ما قبل التاريخ التي سكنت المنطقة سابقاً، كما تُعتبر وسيلة تواصل تضمن التواصل بين الأجيال التي سكنت هذا الموقع على مرّ العصور، وتبقى شاهداً ملموساً على جذور المنطقة العريقة.

توثيق

1- النقوش الصخرية ودورها في توثيق الحياة اليومية

بغض النظر عن موضوعها، تُعدّ النصوص والنقوش القديمة سجلات تاريخية قيّمة، وبالتالي بالغة الأهمية، ولأنها تُوثّق حياة أصحابها وأنماط حياتهم وتفاعلاتهم مع جيرانهم، يُنظر إليها من قِبل الأكاديميين كمصادر توثيقية بالغة الأهمية، وتُعتبر المصدر الرئيسي لوصف تقاليد أصحابها وقناعاتهم وظروفهم الاجتماعية، على الرغم من أن هذه النصوص والنقوش القديمة قد تتطوي على سذاجة وغموض، بالإضافة إلى مبالغات واتهامات وأوهام، ولأن غالبية اللوحات من هذه الحقبة واقعية، يعتقد العلماء أن فنون الصخور والنقوش هي السجلات الأكثر شفافية، والتي قد تُساعد في دراسة وفهم جوانب عديدة من هذه المجتمعات.

وفُرت الرسوم والنقوش بديلاً للنصوص المكتوبة في حال افتقر السكان القدماء إلى لغة مكتوبة، مما سمح لهم بتوثيق حياتهم بصرياً على الصخور، ونظراً لصعوبة تفسير العديد من المواقف، فقد تمثل التحدي في فهم دلالاتها الأخلاقية، خاصة تلك المتعلقة بالطقوس والمعتقدات، ونتيجةً لذلك حاول بعض علماء الآثار تفسير بعض المشاهد المكتوبة على الصخور باستخدام علم الأنثروبولوجيا كعلم مساعد، ولكن على الرغم من جهود الباحثين، لا تزال العديد من مناظر الصخور مجهولة ولم تُفسّر، ومع ذلك قد يُواجه فحصها باستخدام صور فارغة عدداً من المشكلات، مثل النتائج غير الدقيقة وفقدان التفاصيل الدقيقة في بعض الصور نظراً لسوء بعض المواقف، وحتى مع التكنولوجيا المتقدمة اليوم، قد يعجز كل من التصوير الفوتوغرافي وإعادة إنتاج المشهد يدوياً عن تصوير العالم الطبيعي بدقة^{xxvi}.

2. دور النقوش في بناء الهوية الثقافية

ساهمت النقوش في تشكيل الهويات الثقافية للثقافات العربية القديمة جزئياً، فقد كانت تجليات لكريات مشتركة وشعور بالانتماء، لا مجرد رموز جامدة وتجسدت المثل المتأصلة في المجتمعات القبلية في النقوش، التي عبرت عن مشاعر الفخر والتحدي والولاء للقبيلة أو الأرض، كما أبرزت الأسماء والأحداث المحلية، معززة شعور الجماعة بالأمن والقرابة.

ومن خلال عكسها لمحيطهم ومخاوفهم ورؤاهم للحياة والموت والسلطة، ساعدت النقوش الأفراد على الشعور بالارتباط بظروفهم، وقد بُنيت سردية تاريخية مستمرة تُمثل تطور الوعي المجتمعي من خلال هذه النقوش، مما خلق نوعاً من القصة البصرية، وسواء أكانت سياسية أم دينية أم اجتماعية، فقد نقل كل نقش رسالة، وشكّل قناة تواصل بين الأجيال على مر القرون.

وساعدت هذه النقوش، التي نقلت شعوراً مشتركاً بالتاريخ والانتماء، في ترسيخ ما أصبح يُعتبر الهوية الثقافية العربية، وقد أصبح تطور أنظمة الكتابة العربية في ضوء انتشار الثقافة الإسلامية في وقت لاحق ممكناً بفضل هذه المرحلة الكتابية التي شكلت نقطة تحول مهمة في تاريخ الكتابة في العالم العربي من خلال دمج التعبير الإبداعي مع التوثيق^{xxvii}.

تحتّم الدراسة بإظهار أن نقوش الصخور والكهوف كانت شكلاً أساسياً للتواصل بين الناس ومجتمعات ما قبل التاريخ، ولم تكن مجرد رسومات أو رسائل زخرفية، فقد أنشأ القدماء سجلاً بصرياً غنياً بالحياة الاجتماعية والثقافية في تلك العصور من خلال هذه النقوش، مما سمح لهم بتوثيق الأحداث اليومية والطقوس الدينية والمعتقدات الروحية، كما شاركوا معارفهم وتجاربهم مع الأجيال القادمة.

بتصويرها لانتماء قبيلة أو مجموعة، وتجسيدها للمشاعر والطقوس والممارسات نفسها التي ربطت أفرادها، ساهمت هذه المنحوتات بشكل كبير في تطوير الهويات الثقافية للحضارات القديمة، ووفقاً للدراسات شكّلت هذه النقوش خط اتصال مباشر بين الماضي والحاضر، مما أتاح لنا فهماً أعمق لكيفية تفكير وتفاعل سكان ما قبل التاريخ مع جيرانهم والمجتمعات الأخرى ومحيطهم.

وأخيراً وليس آخراً، لا تزال النقوش الصخرية إرثاً ثقافياً لا يُقدّر بثمن، فهي بمثابة تذكير مادي بعبقرية البشر الأوائل، وقدرتهم على التعبير عن الذات، ونقل المعلومات، والتجربة الإنسانية، ولهذا السبب، فإن فحص هذه المنحوتات أمر بالغ الأهمية لفهم بدايات التواصل البشري، فضلاً عن تطور الثقافة والهوية عبر الزمن.

المطلب الثاني : النقوش الصخرية والوظائف الاجتماعية والدينية

كانت النقوش على الصخور والكهوف من أوائل الطرق التي عبّر بها الناس في عصور ما قبل التاريخ عن أفكارهم ومعتقداتهم، فهي تُقدّم فهمًا أساسيًا للحياة الاجتماعية والدينية في الثقافات القديمة، فبالإضافة إلى تسجيل الأحداث اليومية، استخدم القدماء هذه النقوش للتعبير عن معتقداتهم الطقسية والروحية، التي كانت جوهرية لهوياتهم الثقافية والاجتماعية.

ووفقًا للبحوث الأثرية، مثّلت هذه المنحوتات ملتقىً بين العالمين المادي والروحي، وقناةً للتواصل بين الناس والمجتمعات، بدلاً من أن تكون مجرد تصاميم زخرفية أو عروض إبداعية مبهرة، ويتجلى ارتباط القدماء بمعتقداتهم الروحية ورغبتهم في فهم الظواهر الطبيعية من حولهم في المنحوتات التي تُظهر طقوس الصيد والاحتفالات الجماعية، بالإضافة إلى الرموز الدينية المرتبطة بالشامانية أو عبادة قوى الطبيعة.

جانب كونها أدوات تعليمية وتنظيمية، تؤدي نقوش الصخور والكهوف أيضًا وظائف اجتماعية، إذ تساعد الناس على نقل المعرفة والخبرة من جيل إلى جيل، وتوجيه سلوك المجتمع للحفاظ على التماسك الاجتماعي واستمرار القيم والعادات الثقافية، لذلك يمكن القول إن هذه النقوش بمثابة وثائق حية لكيفية تفاعل الناس مع بعضهم البعض، ومع العالم الطبيعي، ومع العالم الإلهي. كما أنها مصدر حيوي للمعلومات حول التنظيم الاجتماعي والديني لثقافات ما قبل التاريخ.

• الرسوم والنقوش الصخرية ومواضيعها الدينية والاجتماعية في ليبيا

الجوانب الدينية للنقوش والرسوم الصخرية في منطقة تادرارت أكاكوس: يبدو من المنطقي أن يرتبط العامل البشري الذي أنتج الفن الصخري به، ومن هذا المنطلق، توصلت البحوث الأثرية، وخاصة الإيطالية، إلى نتائج مهمة في تحديد مكونات السكن البشري المبكر في المنطقة، والتي شهدت بدورها مراحل ثقافية حاسمة، ويُعد عصر الهولوسين الرطب هو الفترة التي شهدت أولى هذه المراحل، ولدينا الآن حقائق حيوية عن التواريخ القيمة المتعلقة بالفخار وعظام الحيوانات من الأبقار بفضل الاكتشافات الأثرية، يُعد العصر الحجري الحديث قديمًا جدًا في المنطقة، وفقًا لنتائج دراسة المنقب الفرنسي غابرييل كامس، وينطبق هذا أيضًا على اللوحات الجدارية، وخاصة تلك التي يمكن رؤيتها في ملجأ تين لالان في صحراء فزان الجنوبية، وتشير هذه الأدلة الأثرية إلى أن حضارة أكاكوس قديمة جدًا، إذ يعود تاريخها إلى حوالي ٩٨٠٠ قبل الميلاد، تُقدم البقايا المكتشفة في الكهفين دليلًا على أن المنطقة كانت مأهولةً بالبشر منذ حوالي عشرة آلاف عام. تاركوري وعين محجاج^{xxviii}.

يعتقد كثير من الباحثين أن دافع الفن الصخري نابع من نوع من السحر المستمد من التخمينات الدينية، ولعل في استخلاص أثر هذه الفنون فائدة، إذ لم تكن المهارة والدقة في تجسيدها بهذا الحجم الكبير محض صدفة، بل على العكس، تعكس طقوسًا روحية وشعائر عبادة، ويُستشف من صورة وحش بري شرس على جدار أن هؤلاء الصيادين كانوا يؤدون طقوسًا فريدة قبل بدء عملية الصيد، ومن المهم أيضًا مراعاة فكرة أن إنسان ما قبل التاريخ، في فترة الصيد، كان يُقدّس الحيوانات ويُقدّسها، ولعل هذا هو سبب رغبته في التشبه بها والابتعاد عن لعناتها، فأخذ شخصيتها، كما تُعتبر لوحاته وسيلةً يتواصل من خلالها مع القوى الميتافيزيقية التي تُحكم بلا شك أحداث حياته والظواهر الطبيعية المحيطة به، ومن ثم نكتشف محاولته المستمرة لتصوير الأشخاص والحيوانات من أجل توفير الشعور بالأمن والأمان الذي كان يسعى إليه دائمًا^{xxix}.

• الأبعاد الاجتماعية للرسوم والنقوش الصخرية في منطقة "تادرارت - أكاكوس":

يُعد المشهد الذي يُصوّر الصراعات والمقاومة التي دارت بين مختلف الجماعات البشرية المقيمة في المنطقة للسيطرة على مواقع المراعي والحفاظ على مواردها بشكل دائم أحد اللوحات المهمة التي تُجسّد عنصرًا مهمًا من الحياة اليومية لسكان صحراء فزان القدماء، ترتبط فكرة معركة البقاء بالبعد في هذا الموضع، رُسمت هذه الصورة في منطقة وان ميل، حيث يبدو أن مجموعتين متميزتين قد اتخذتا موقفًا قتاليًا،

تحليل أنماط النقوش الصخرية والكهفية لفهم الوعي البيئي والروحاني للإنسان البدائي

كل منهما تلوح بالسهام والأقواس، يوجد ما يقرب من عشرين شخصًا على الجانب الأيسر، يرتدون ملابس فضفاضة وقصيرة، وهم يتحركون بنشاط، بينما المجموعة الأخرى على الجانب الأيمن تراقب وتضع خوذات على رؤوسها.^{xxx}

كما فحص متخصصون محتوى العديد من اللوحات ذات العناصر الاجتماعية، مثل تلك الموجودة في حي هراق خارج أكاكوس، حيث تصور الصورة مجموعة من الصيادين يطاردون مجموعة من الثيران، يظهر ستة أشخاص على الجانب الأيمن من الصورة، وأيديهم اليسرى منحنية للأسفل وأيديهم اليمنى ممسكين بأقواس مصغرة جاهزة للصيد، وقد أظهر الفنان القديم هؤلاء الأفراد بنفس حركة الجري التي يستخدمونها أثناء مطاردة الفريسة، ولعل ظهور هؤلاء الأشخاص بدون سترة سوى ذيل في الخلف هو أهم سمة اجتماعية لهذا الدور، في المقابل نرى أشخاصًا في رسومات أخرى يرتدون ملابس كاملة أو نوعًا من القماش حول الحوض، كما هو موضح في إحدى اللوحات الجدارية التي تصور مجموعة من الرماة في منطقة وان ميل^{xxxi}.

في رأينا، تصور هذه اللوحات أكثر من مجرد مشاهد الصيد؛ فهي تحمل أيضًا عددًا من الدلالات الاجتماعية، مثل التعاون الجماعي في الصيد المبني على الاستراتيجية والتخطيط، وعرض تفاصيل الجسم مثل الوشم والملابس بألوان وأشكال مختلفة، والتي نعتقد أنها قد تكشف عن التقسيم الطبقي الاجتماعي للرجال وحتى التمييزات الأنثروبولوجية بين المجموعات التي تصورها.



شكل 3 مشهدين يمثلان الحياة اليومية في منطقة تادرارت - أكاكوس

المصدر: يامون، 2024، 814 .

تُعدّ النقوش على الصخور والكهوف من أقدم الطرق التي عبّر بها الناس عن آرائهم ومعتقداتهم، فهي تُقدّم لمحةً فريدةً عن الحياة الاجتماعية والدينية في الثقافات القديمة، يُمكننا من خلال دراسة هذه المنحوتات أن نفهم كيف كانت الطقوس الدينية جزءًا أساسيًا من الحياة اليومية، وكيف ساهمت في توجيه السلوك الاجتماعي، وكيف حافظت على القيم والأعراف الثقافية، كما تُظهر كيف تتفاعل الناس مع البيئة وقوى الميتافيزيقيا التي آمنوا بها، بجانب التلميحات الدقيقة إلى الفروقات الاجتماعية والاقتصادية والاختلافات الثقافية بين الجماعات البشرية، تُؤكد هذه المنحوتات على ضرورة التعاون والتحضير في التفاعلات الاجتماعية.

تُمثل هذه النقوش سجلاتٍ حيةً تتجاوز أهميتها قيمتها الجمالية، وتُشكل موارد تعليمية واجتماعية وروحية تُساعد الباحثين على فهم التنظيم الديني والثقافي لمجتمعات ما قبل التاريخ، وكيفية تشكّل هوياتهم وكيفية تفاعلهم مع بيئتهم. ومن ثم فإن دراسة النقوش الصخرية تعتبر بمثابة رابط بين الماضي والحاضر، وتسمح بإجراء فحص شامل للأنماط الاجتماعية والدينية البشرية القديمة.

• منهجية الدراسة والإجراءات

أولاً: منهج الدراسة

يعتمد هذا العمل على المنهج الوصفي التحليلي في جمع المنحوتات الصخرية والكهفية وفحصها بدقة، ثم تحليل معانيها وأنماطها للكشف عن الجوانب الروحية والبيئية التي تمثلها. وعند دراسة المنحوتات في مواقع مختلفة، سيتم استخدام المنهج المقارن لتسليط الضوء على أوجه التشابه والاختلاف الإقليمية.

ثانياً: أدوات الدراسة

أ- الملاحظة المباشرة: من خلال زيارة مواقع المنحوتات الصخرية والكهفية، والتقاط صور لها، وتسجيلها.

ب- التصوير الرقمي: لاستخدام الصور كدليل للفحص المتعمق.

ت- نظم المعلومات الجغرافية (GIS) والخرائط: لتحديد الموقع الدقيق للنقوش وربطها بالمناظر الطبيعية المحيطة بها.

ث- التحليل الرمزي والمقارن: لتحليل المعاني الروحية والبيئية للنقوش.

ثالثاً: مصادر جمع البيانات

المصادر الأولية: زيارات ميدانية، وصور، وتحليلات للنقوش الصخرية والكهفية.

المصادر الثانوية: المنشورات العلمية السابقة والأبحاث المتعلقة بالنقوش الصخرية والدراسات الأنثروبولوجية والأثرية ذات الصلة.

المنشورات والأبحاث العلمية التي تناولت الرمزية الروحية والبيئية في العصور القديمة.

رابعاً: عينة الدراسة

تتكون عينة البحث من مواقع متنوعة لنقوش الصخور والكهوف القديمة. وقد تم اختيار هذه المواقع بناءً على معايير محددة، منها :

أ- التنوع الجغرافي .

ب- تنوع المواضيع.

ت- وضوح النقوش ودرجة حفظها النسبي.

خامساً: أساليب التحليل

أ- التحليل الفني: شرح الأسلوب والمنهج والأدوات المستخدمة في النقوش.

ب- التحليل الرمزي: تفسير الرموز والزخارف لفك رموز المعاني الروحية والبيئية.

ت- التحليل المقارن: هو عملية فحص المنحوتات من مواقع متعددة لتحديد الأنماط والاختلافات.

ث- التحليل السياقي: ربط المنحوتات بالظروف الاجتماعية والثقافية والدينية لشعوب ما قبل التاريخ.

سادساً: حدود الدراسة

أ- الحدود المكانية: تقتصر الدراسة على مواقع محددة لنقوش الصخور والكهوف التي يسهل الوصول إليها والقابلة للبحث الميداني.

ب- الحدود الزمنية: تقتصر الدراسة على المنحوتات القديمة؛ ولا يتناول المنحوتات من العصور اللاحقة.

ت- الحدود الموضوعية: بدلاً من الخوض في القضايا التقنية البحتة، تركز الدراسة على دراسة المعاني الروحية والبيئية للمنحوتات.

ث- الحدود البشرية: تقتصر الدراسة على مجموعة مختارة من المنحوتات التي تُستخدم كنماذج بحثية، وليس جميع المنحوتات من جميع أنحاء العالم.

• نتائج الدراسة

1. تكشف النقوش الصخرية والكهفية عن أنماط متكررة تحمل دلالات بيئية وروحانية مرتبطة بعلاقة الإنسان البدائي بمحيطه الطبيعي.
2. تعكس النقوش ارتباطاً وثيقاً بين الإنسان والطبيعة، يظهر في تصوير الحيوانات والنباتات والظواهر الطبيعية بوصفها عناصر مركزية في حياته ومعتقداته.
3. تشير الأدلة النظرية إلى أن مواقع النقوش لم تكن عشوائية، بل ارتبطت غالباً بمناطق ذات أهمية بيئية مثل مصادر المياه والسهول والمراعي.
4. توضح النقوش وجود لغة رمزية بصرية مشتركة، وإن بدرجات متفاوتة بين المجتمعات القديمة، مما يدل على بدايات التفكير الرمزي والاتصال الثقافي.
5. تكشف المقارنة بين النقوش في مناطق مختلفة عن أوجه تشابه عامة في الرموز، مع اختلافات محلية تعكس التنوع البيئي والثقافي.
6. أن النقوش لم تكن مجرد فن جمالي، بل وسيلة للتعبير عن الطقوس الجماعية والروحانية مثل طقوس الصيد أو الشعائر الدينية.
7. تشير الدراسات النظرية إلى أن الإنسان البدائي امتلك قدرات فنية وتقنية مكنته من إنتاج نقوش متناسقة، ما يعكس وعياً جمالياً وفلسفة وظيفية في الوقت ذاته.
8. النقوش الصخرية والكهفية وثائق بصرية أساسية يمكن الاعتماد عليها لفهم تطور الوعي البيئي والروحي، وتشكل مرجعاً أنثروبولوجياً وأثرياً مهماً

توصيات الدراسة

1. توسيع نطاق البحث النظري حول نقوش الكهوف والصخور من منظور رمزي وأنثروبولوجي، بهدف كشف جوانب الوعي الروحي والبيئي للإنسان المبكر.
2. لفهم أوجه التشابه والاختلاف عبر الثقافات القديمة وربطها بالبيئة والثقافة الإقليمية، ينبغي أن تركز الدراسات المستقبلية على الدراسات الرمزية والمقارنة.
3. النظر إلى النقوش الصخرية على أنها أكثر من مجرد تمثيلات بصرية، بل كسجلات ثقافية وفكرية تُشير إلى ظهور الفكر الرمزي والروحي.
4. إنشاء إطار نظري للبحث الأثري يجمع بين مناهج المقارنة والتحليل والوصف لفهم الجوانب المتعددة لهذه المنحوتات.
5. لفهم أصول الفلسفة البيئية في التاريخ البشري، يُعاد قراءة النقوش في سياق الرؤى المعاصرة حول التفاعل بين الإنسان والبيئة.
6. يمهّد هذا الطريق لمزيد من البحث الاجتماعي التاريخي من خلال أخذ النقوش الصخرية في الاعتبار كوسيلة لكشف التنظيم الاجتماعي والروحي لثقافات ما قبل التاريخ.
7. يمكن تطوير نظريات حول تشكيل الأفكار الروحية والوعي البيئي المبكر من خلال تسليط الضوء على حقيقة أن المنحوتات تُعدّ سجلاً بصرياً للوعي الجماعي.
8. لفهم استمرارية الرموز وتطورها عبر الزمن، من الضروري إجراء دراسات مقارنة أكثر شمولاً بين المنحوتات الصخرية وأمثلة الفن الرمزي في الثقافات اللاحقة.

المراجع

- ⁱ سائحي العلاء، (٢٠٢٤)، دراسة مفاهيمية للنقوش الصخرية، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور بالجلفة، 483-491.
- ⁱⁱ Malhomme, (1953) Les armes gravées du grand atlas, in congrès préhistoriques de France XIV session , 395.
- ⁱⁱⁱ موسي، حمدي صبري موسي، (2022)، ميثولوجيا النقوش الصخرية في تدارات الأكاكوس، مجلة كلية الآداب جامعة أسوان، 12(1)، 107-78.
- ^{iv} بوخنوفة (فيروز)، (2012)، محاولة إعادة النظر في مفهوم أسلوب تازينة في الفن الصخري مذكرة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2.
- ^v Marcel (Otte), (1999), LA PREHISTOIRE, De Beock, Université, Belgique, 269
- ^{vi} Searight, (1992), gravures rupestres de haut atlas, ministre du tourisme, casa, 14.
- ^{vii} "ROCK ART OF Sahara And North Africa, (2007), World Heritage Convention, ICOMOS, 02-05.
- ^{viii} الجوهري، أسامة، (2012)، فن الكهوف والملاجئ الصخرية، ط1. بورصة الكتب للنشر والتوزيع القاهرة، مصر، ١٠.
- ^{ix} غانم، محمد الصغير، (2003)، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، ط1، دار الهدى الجزائر، ١٦٦.
- ^x وابل، امحمد (2014)، انعكاس مرحلة المناخ الأمثل على ثقافة المجتمعات في الصحراء الوسطى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران الجزائر، 214 .
- ^{xi} Malhomme, , (1960), Corpus des gravures rupestres du grand atlas, P.S.A.M.n13, Rabat, 1989 l'homme à l'inscription des AZIBES NIKKIS yagour in B.A.M. Tome IV, 417.
- ^{xii} أحمد سامر سالم، (٢٠٢١)، تاريخ الفن، الجمهورية العربية السورية، المعهد العالي للفنون المسرحية، قسم دراسات، 2 .
- ^{xiii} أحمد سامر سالم، مرجع سابق، 2 .
- ^{xiv} د نشوى نعيم صادق، (٢٠١٢)، الدلالات والمعاني المرتبطة باستخدام الرمز واستعارة الشكل الخيالي في الفن القبطي، مجلة بحوث التربية النوعية - جامعة المنصورة، عدد ٢٥، ٦٣٦.
- ^{xv} د نشوى نعيم صادق، مرجع سابق، ٦٣٦.
- ^{xvi} السيد، صبري إبراهيم، (2017)، رموز الحكاية الحيوانية في كتاب "حكايات الحيوان في العصر الجاهلي" للدكتورة عزة الغنام، رابطة الأدب الحديث، 330-323.
- ^{xvii} بعيطيش، عبد الحميد، (2015)، المحتوى التاريخي للنقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية، دورية كان التاريخية : المستقبل الرقمي للدراسات التاريخية، 8(30)، 8.
- ^{xviii} Huard Paul, (1968), Nouvelles figuration sahariennes et nilo-soudanaises de bœufs porteurs, montés et attelés, bulletin de la société préhistorique française, tome 65, N 4, 114-120,
- ^{xix} د نشوى نعيم صادق، مرجع سابق، ٦٣٦ - 637.
- ^{xx} عبد الرحمن النشار، (١٩٧٢)، دراسة مقارنة بين الرمزية في التصوير ورسوم الاطفال، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الفنية جامعة حلوان، ١٢ - ٢٠.
- ^{xxi} مني محمد ندا، (١٩٩٨)، الشعبان كرمز تشكيلي في فن التصوير المصري القديم كمدخل للتذوق الفني، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية الفنية جامعة حلوان، ٢٩ - ١٦.
- ^{xxii} حسن يوسف، (١٩٩٥)، النقائش والرسوم الصخرية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المؤتمر الثالث عشر للآثار، الجماهيرية العظمى، طرابلس، 228.

^{xxiv} حسن يوسف، مرجع سابق، 229.

^{xxv} Dana, (2015), Inscriptions, A Companion to Ancient Thrace, 243–264.

^{xxvi} بعيطيش، عبد الحميد، مرجع سابق، 3.

^{xxvii} Hope, (2016), Inscriptions and Identity, The Oxford Handbook of Roman Britain, 285–302.

^{xxviii} بن بوزيد لخضر (2015-2016م)، حضارات الرعاة في النيوليتي بالطاسيلي والهوقار من خلال الفن الصخري * (5000 – 3500)، طروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ القديم، ج 01، اش إبراهيم العيد بشي جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله.

^{xxix} جبار حميدي محيسن الربيعي، (2017م)، الرسوم الصخرية لعصور ما قبل التاريخ في ليبيا، مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية العدد 31، العراق.

^{xxx} رشيد صديق جوان، (2022م)، مستجدات البحث الأثري بوادي صياد العلوي: موقع موشمر أنموذجاً، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، المجلد 05، العدد 03، المغرب، 9.

^{xxxi} يامون، وعمر، (2024)، الرسوم والنقوش الصخرية ودلالاتها العقائدية-الدينية الاجتماعية لدى إنسان الشمال الأوروبي القديم (رسومات ونقوش النقشيلي-ناجرا) اللوحات والنقوش الصخرية ودلالاتها العقائدية والدينية والاجتماعية للإنسان الشمال إفريقي القديم (نموذج رسومات الطاسيلي نجار ونقوشه نموذجاً)، 16(2)، 809-829.